الفصل الأول

طبيعة المتغيرات فى عالم اليوم

لن نعرض تفصيلا لهذه المتغيرات وإنما سنكتفى بالإشارة الموجـزة لعدد منها ودلالات ذلك وانعكاساتها على وضع العالم العربى ، ولقد برزت تلك المتغيرات خلال الربع قرن الأخير ، وازدادت بـروزا فـى السنوات العشر الأخيرة على وجه التحديد.

المتغير الأول: تحلل الاتحاد السوفيتى وانهيار الكتلة الاشتراكية وهو الحدث الجلل الذى تفاعل على الساحة الدولية منذ صعود جورباتشوف إلى سدة السلطة فى الاتحاد السوفيتى وبلغ قمته وأوجه فى عام ١٩٩٧ بموافقة دول حلف شمال الأطلنطى (الناتو) على انضمام بعض دول أوربا الشرقية للحلف وبذلك أعلن رسميا إسدال الستار على الانقسام الحاد فى العالم . ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل أعلن الرئيس الروسى يلتسين بأنه قرر عدم توجيه صواريخ بلاده نحو دول حلف الأطلنطى.

ولعل التساؤل المطروح من الذى يهدد روسيا الاتحادية الآن؟ وما جدوى تسلحها بأسلحة حديثة؟ والتساؤل الثانى ما أثر ذلك على منطقة الشرق الأوسط وبالأحرى على العالم العربى؟

لقد أصبح واضحا تمام الوضوح أن الاتحاد الروسى قد استسلم تماما للقوة الغربية العسكرية والاقتصادية والسياسية وأنه يسعى لإثبات حسن نواياه يوما بعد يوم سواء فى سلوكه اليومى فى

المنظمات الدولية أو فى مواقفه فى المؤتمرات والمحافل الدولية أو فى تصريحاته وإعلاناته الرسمية.

ومع هذا فإنه لا يجب أن نشطب الاتحاد الروسى تماما من حسابات القوى الدولية فإذا كان القرن التاسع عشر شهد إطلاق اسم رجل أوربا المريض على الإمبراطورية العثمانية فإن العقد الأخير من القرن العشرين يشهد إطلاق رجل أوربا المريض على روسيا الاتحادية ولكن شتان ما بين الحالتين فتركيا و الدولة العثمانية كانت أوروبية فى الموقع وليس فى الروح والحضارة ، ولذلك فرغم سقوط الدولة أو الإمبراطورية العثمانية وتحول تركيا إلى العلمانية فإن أوربا ما تزال لم تقبلها عضوًا كاملاً فى داخلها لاختلاف التراث الحضارى فى المقام الأول. ولكن روسيا الاتحادية رغم مرضها فإن الدول الغربية تسعى لمساعدتها ولضمها لأوربا لأن روحها الحضارية وتراثها السياسى والدينى واحد أو متشابه على أقل الفروض ، كما أن روسيا كانت عضوًا فى الوفاق الأوروبى European Concert منذ بداية القرن التاسع عشر ومن هنا فإن التنافس بينها وبين الدول الأوربية الأخرى هو تنافس فى إطار العائلة الأوربية بخلاف وضع تركيا فالتنافس والاختلاف بين أطراف متغايرة حضاريا وثقافيا.

ومن ثم فلا عجب أن نجد موقف الاتحاد السوفيتى بالمبادرة بالاعتراف بقيام إسرائيل عام ١٩٤٨ لا يختلف كثيرًا عن موقف روسيا الاتحادية بتعزيز علاقاتها الاقتصادية والسياسية مع إسرائيل عام ١٩٩٨ وفى تقديرى أن منطق المصلحة القومية هو الدافع

الرئيسى فى كلتا الحالتين ، وأما موقف الاتحاد السوفيتى فى فترة المد القومى العربى بالتحفظ فى العلاقات مع إسرائيل فكان هدفه السعى للمصلحة القومية الروسية أكثر منه إيمانا بعدالة القضية العربية أو الفلسطينية ولا تثريب عليه فى ذلك فالسياسة مصالح أكثر منها مبادئ وإن رفعت الدول كثيرًا شعارات المبادئ كحلية فى إطار العلاقات العامة فى المجال الإعلامى والسياسى الدولى.

وتأثير هذا المتغير انعكس على الوضع العربى فى حالات عديدة ولعل فى مقدمتها الحسابات الخاطئة لنظام صدام حسين فى غزوه للكويت وتصوره أن الاتحاد السوفيتى سيستخدم الفيتو أو انه سينذر التحالف المضاد له على غرار ما حدث عام ١٩٥٦ مع مصر وكذلك انعكس أثره فى التسلح العربى والقرارات السياسية العربية الخاصة بالسلام فى الشرق الأوسط وهذه أمور واضحة تمام الوضوح ليست فى حاجة إلى مزيد يكفى الإشارة إلى أن روسيا كرئيس مشارك فى عملية السلام ليست فى الحقيقة سوى مراقب أو متفرج على اللعبة.

المتغير الثانى: سيطرة القطب الأوحد على مقاليد السياسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى العالم واتجاهه لفرض قِيَمه ومفاهيمه ومثله وسياساته ومواقفه على شتى دول العالم.

ورغم هذا فإن الأمور الدولية لم تستقر تماما والصراعات لم تختفِ، بل يمكن القول: إن الصراع الدولى انتقل من المستوى العالمى بين الكتلتين إلى مستويات ثلاثة أدنى من ذلك من حيث الاتساع والشمول وإن لم تكن أقل خطورة من حيث استمرار النزيف البشرى.

المستوى الأول هو بين الدول التى خرجت من رحم الكتلة الاشتراكية السابقة مثل تفكك يوغسلافيا الاتحادية فى إطار عملية صراع عرقى دموى بلغ ذروته فى البوسنة ثم كوسوفو وعجز المجتمع الدولى عن وقف عملية إبادة الجنس التى تعرض لها المسلمون فى البوسنة واستمرار ذلك عدة سنوات مليئة بالمخازى للأمم المتحدة وللدول الكبرى وخاصة أوربا التى انتقل الصراع إلى أطرافها ولما بلغ اليأس مداه تدخل العملاق الأوحد بتسوية مفروضة وتتسم بالغموض فى إطار اتفاق دايتون للسلام ما زال يمثل تسوية هشة يمكن أن تنفجر فى أية لحظة ، ويمكن أن ينضم لهذا النمط من الصراعات ذلك الذى يدور فى طاجيكستان من حرب أهلية وفى الصومال ورواندا وبوروندى وليبيريا والكونغو وأفغانستان.

المستوى الثانى بين الدول المتجاورة والتى انشغلت فى حروب أو تسابق للتسلح فيما بينها ، وهناك عدة دول فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فضلا عن الصراع بين أرمينيا وأذربيجان.

المستوى الثالث هو صراع ذو بعد اقتصادى بين دول الشمال المتقدمة ودول الجنوب النامية واتضاح عجز النظم السياسية والاقتصادية فى دول الجنوب عن الوفاء باحتياجات شعوبها وفى نفس الوقت عدم رغبة دول الشمال فى تقديم مساعدة حقيقية وميلها لاستخدام هذه المساعدات لأهداف سياسية.

ويتمثل انعكاس هذا المتغير على الشرق الأوسط فى العجز عن إتمام تسوية مرضية للقضية الفلسطينية وعدم تحقيق تقدم فى

المباحثات السورية اللبنانية الإسرائيلية وفى التوتر بين دول المنطقة مما يهدد باحتمالات غير منظور حسابها بدقة خاصة فى ظل استمرار التشدد الإسرائيلى ، وتغذية التطرف المتمثل فى حزب الليكود وعدم اتخاذ القطب الأوحد موقفا يضمن احترام وتنفيذ الاتفاقيات المعقودة بين الإسرائيليين والفلسطينيين ويحقق جدية العملية التفاوضية من أجل سلام عادل تتم فيه الالتزامات المتبادلة والمتوازنة لإقامة شرق أوسط جديد ، عبر عن التطلع له بعض قادة المنطقة. وصبت إليه نفوس شعوبها ولكن فى ظل عدم الحزم فى مواجهة التطرف الإسرائيلى وعدم ضمان التحرك لمواجهة الجمود فإن احتمالات اندلاع العنف بصورة أو بأخرى قائمة ومحتملة مما يهدد الموقف فى المنطقة بأسرها.

المتغير الثالث: سعى المجتمع الدولى وبخاصة القوى الاقتصادية الكبرى للتكتل فيما بينها وبخاصة تجمع الاتحاد الأوروبى وتجمع النافتا وتجمع الآسيان وهذه التجمعات تضم دولا متقدمة أو نمورا ناشئة وأصبحت هذه التجمعات نقاط جذب عالمية عبر وسائل متعددة بحيث أضحت دول معينة مهددة بأن تترك فى العراء وكذلك أضحت مناطق أخرى عاجزة عن تفعيل مؤسساتها الاقتصادية ، ولعل فى التجمعات الاقتصادية والسياسية العربية خير مثال على هذا العجز والإخفاق مما يعكس ضعف الإرادة السياسية وقلة الإدراك لمخاطر استمرار التمزق والخلافات وعدم توافر التفكير العقلانى المنطقى. ويمثل هذا المتغير أخطر المتغيرات على الشرق الأوسط لأن

الضعف الاقتصادى ينعكس فى ضعف سياسى وهاجس أمنى وهما بدورهما يزيدان الضعف الاقتصادى من خلال استنزاف الموارد المتاحة فى أغراض الدفاع والحمية من الأعداء الحقيقيين أو الوهميين بدلاً من بلورة استراتيجية تعاون اقتصادى يزيل مخاوف الأمن ويعزز البنيان السياسى للكيانات الصغيرة.

المتغير الرابع: هو بروز القيم الحديدة الخاصة بحقوق الإنسان وسعى الغرب لفرض مفاهيمه وتفسيراته على المستوى العالمى. وكذلك قضايا البيئة والمخدرات والإرهاب وهذه القضايا متداخلة ومتشابكة وبخاصة قضيتى المخدرات وغسيل الأموال والإرهاب وتأثيراتهما على مناطق عديدة.

المتغير الخامس: ظهور دعوات لمفاهيم الصراع الحضارى فى القرن الحادى والعشرين ، ومن ذلك تلك الأفكار التى يروج لها صامويل هنتجتون عالم السياسة بجامعة هارفارد وبخاصة ما يتعلق بالنظر للإسلام باعتباره عدو الغرب الأول بعد سقوط الشيوعية. هذا فضلا عن ارتباط ذلك بظاهرة المد الأصولى الإسلامى واتخاذه وسائل العنف لتحقيق أهدافه. ولا شك أن تخوف الغرب له مبرراته التاريخية منذ الحروب الصليبية ، وله مبرراته الحديثة لاستخدام بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة العنف والإرهاب كوسائل لتحقيق أهدافها سواء فى الصراع الوطنى المتمثل فى بعض الدول العربية الإسلامية والذى بلغ ذروته فى دولة مثل الجزائر والتى يلقى

أبرياء مصيرهم المشئوم يوميا، وكذلك أفغانستان التى أصبحت رمزا لأن تأكل الثورة ليس فقط أبناءها بل وأيضا شعبها فى صراع قبلى وطائفى لا نظير له ولكن من الإنصاف أن نقول إن موجة التطرف الدينى ليست قاصرة على الدول الإسلامية بل تمتد لدول هندوسية أو مسيحية كأيرلندة وإلى إسرائيل حيث يتم تدليل الجماعات اليهودية المتطرفة ، وهذا كله يمثل خطورة على منطقة الشرق الأوسط ذات الحساسيات الدينية المفرطة ، وذات الاحباطات السياسية والقومية وذات العجز الاقتصادى والمعاناة المستمرة ولعل وضع الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة هو خير دليل على ذلك.

والتساؤل المطروح هو حول دور النظام العالمى والتنظيمات الإقليمية فى مواجهة هذه المتغيرات ، ورغم المحاولات لتقديم حلول أو اقتراحات بحلول ، فإن التوصل لمثل هذه الحلول العملية مازال أمرا لم يتحقق ويحتاج لإرادة دولية وإرادة إقليمية وإرادة وطنية لرسم استراتيجية ناجحة لمواجهة هذه المتغيرات.

المتغير السادس: ثورة التكنولوجيا والاتصالات وهذه الثورة البالغة التقدم والمتطورة باستمرار وبسرعة فائقة أصبحت تضع معظم دول العالم فى مصاف الدول الفقيرة والتى تعيش على فتات التكنولوجيا وفى نفس الوقت أصبحت سماواتها مفتوحة أمام الأقمار الصناعية للبث الإعلامى وما تحتويه من قيم ومفاهيم وسلوكيات لا تراعى الحساسيات والخصائص الإقليمية ، ويزيد من مخاطر ذلك

أن قوى الإرهاب والمخدرات أصبحت تستخدم وسائل التكنولوجيا والاتصالات الحديثة بدرجة تفوق إمكانيات الكثير من الدول النامية.

تلك هى أبرز المتغيرات فى عالم اليوم الذى يستعد لدخول القرن الحادى والعشرين حيث يسود الجهل والفقر والمرض معظم ما يسمى بدول العالم النامى وتسود التكنولوجيا لدى قلة من دول العالم.